المقتطف

الجزء العاشر من السنة التاسعة . تموز . يوليو ١٨٨٥

ادوار حياة الانسان من الولادة الى الموت [1]

لجناب الدكتور يوحنا ورتبات

عضو المجمع الطبي الجراحي في ادنبرج ومجمع الامراض الوافدة في لندن وطبيب مستشفى امراء مار يوحنا في بيروت

قيل ان جلّ ما يبحث عنهُ الانسان هو الانسان نفسهُ ولا سبيل الى الريب في هذا القول سواءٌ نظرنا اليهِ من حيث كونهُ اعلى المخلوقات المنظورة او من حيث الفائدة الكلية التي تعود الى الباحث من معرفة نفسهِ . وبناء على ذلك لم يكن شيءٌ من تركيب الانسان وبنائهِ ووظائف اعضائهِ وقواهُ العاقلة واختلاف اجناسهِ وامراضهِ وكيفية دفعها بالدواء او بالتدبير الصحي ومقامهِ في الكون وما يتوجب عليهِ نحو الله والبشر الاَّ بحث فيهِ العقلاء من الزمن القديم الى هذه الساعة وقد نشأ من هذا البحث علوم كثيرة انفرد اليها بعض العلماء فانفقوا درسها وتعلمها وتصنيف الكتب فيها بحيث لا يتأتى الآن لاحد ان يبرع في جميع هذه العلوم ويعرفها معرفة من انفق حياتهُ في درس علم واحد منها وانما غاية ما يبلغهُ المجتهد في هذه الايام معرفة المبادئ العامة من هذه العلوم الواسعة

وليس لنا الآن ان نتعرض لشيء من هذه المباحث وانما نقتصر في الكلام على التغيرات التي تحدث في بنية الانسان الجسدية والعقلية والادبية من زمن ولادتهِ الى موتهِ اي من المهد الى القبر وهو امر كثيرًا ما اشغل افكار الفلاسفة والشعراء والتأمل فيهِ مفيد على الخصوص للشبان

(١) خطبة تلاها في الاحتفال السنوي لجمعية شمس البر في ١ ايار سنة ١٨٨٥

الذين قطعوا مسافة من الحياة ولم يدركوا التقلبات التي حدثت فيهم ويخشى ان لا ينتبهوا الى ما سيحدث لهم اذا خطفهم الموت قبل وصولهم الى الهرم والانحلال . والفائدة من ذلك انه اذا كانت الحياة قاعدة كل اعمال الانسان فمن الضرورة ان تكون صفات ادوارها المتعاقبة اي انقلاب الطفل الى الشاب والشاب الى الكهل والكهل الى الشيخ والشيخ الى الهرم من الامور التي يجب على الشاب العاقل ان يقف عندها و يتأمل مصيرهُ

رأيت مرة ما تخيلهُ احد المصوّرين من هذا القبيل فكنى عن الحياة بحمل وجعل للانسان خمس منازل لكل منزلة صورة . فترى في الصورة الاولى ولدًا يمرح في حقل جميل و في يده طاقة من الزهر يرميها في الهواء ثم يتلقاها وعلى وجههِ لوائح الفرح بلا اكتراث لما حولهُ . فما الحياة لهُ الّا العوبة يتسلّى بها وهو سعيد راضٍ لا يحمل شيئًا من اثقال الدنيا خالٍ من كل غمّ على مامضى وهمّ لما يأتي . وفي الصورة الثانية صار الطفل شابًا وبدا لهُ شيءٌ من عسر الحياة لاننا نراهُ صاعدًا جبلاً غير انهُ في قوة شبابهِ لا يبالي بمشقة الصعود وقد رفع بيدهِ الواحدة ما كنى عنهُ المصور بحمل الحياة وهو لا يشعر بثقلهِ وعليهِ لوائح الافتخار والاقتحام وعدم الخوف . وامسك بيدهِ الثانية الصبية التي اختارها رفيقةً لهُ في الحياة يعينها في الصعود ولا نرى لها حملاً الّا سلّة ازهار صغيرة . وفي الصورة الثالثة بلغ الشاب منزلة الكهولة وزالت عنهُ علامات الكبرياء والاقتحام وظهرت على وجههِ لوائح الكدر وخيبة آمال الشباب وهو حامل حملهُ بلا تعب ولكن بلا افتخار . وقد زال جمال امرأتهِ الماسكة بهِ وتبدل بالفكرة والحزن . وفي الصورة الرابعة صار الكهل شيخًا فابيضّ شعرهُ وانحنى ظهرهُ وصار حملهُ عسرًا لاننا نراهُ يحملهُ مسافة ثم يضعهُ على الارض ليستريح ثم يحملهُ ويسير بهِ . والصورة الخامسة صورة الهرم الحزن لان الشيخ ضمر وهزل ولم يبقَ على راسهِ الّا قليل من الشعر . وهو مطروح على الارض تحت ثقل سنيهِ وامامهُ قبر مظلم مفتوح واما حملهُ الذي لا يزال قابضًا عليهِ فتدسيهُ الى الحفرة وهو يجذبهُ اليها رغمًا عن مقاومتهِ الضعيفة لانهُ بلغ حافة القبر الذي عما قريب يبتلعهُ

تقسم حياة الانسان الى ثلاثة ادوار كبيرة الاول دور النموّ والثاني دور البلوغ والثالث دور الانحطاط ويتميز الاول بالزيادة في حجم الجسد وثقلهِ وقوتهِ وبارتقاء تدريجي في وظائف الجسد والعقل . وسبب هذه الزيادة والارتقاء تغلّب احد العاملين القائمين على الدوام في جميع الاجسام الآلية وهما البناء والدثور او التركيب والتحليل مع التحسين في بناء الاعضاء بحيث انهُ لا يزيد حجمها فقط بل ترتقي في حسن العمل اي في قضاء وظائفها ايضًا . وفي الدور الثاني متى بلغ الانسان اشدّهُ من القوة توازى العملان اي ان الطبيعة تبني الانسجة كلما دثرت وتعوّض كل الخسارة الناشئة

من عمل الاعضاء . وتدوم هذه الموازنة ما دام الانسان في قوته الطبيعية . وفي الدور الثالث تظهر اولاً علامات منذرة بالضعف العام الذي ينتهي الى العجز عن اعمال الحياة النشيطة . وفي هذه المدة تنقص قوة التركيب ويتغلب عليها عمل التحليل و يشتد التقهقر مع تقدم الشيخوخة الى ان يصل الانسان الى الهرم التام . وعلى ذلك لنا اولاً مدّة استعدادية تبدأ عند اول نسمة الحياة وتنتهي بين السنة الخامسة والعشرين والثلاثين ثم مدّة البلوغ التام بين السن المذكور والسنة الخامسة والاربعين الى الخمسين ثم مدّة الانحطاط التي تنتهي غالباً نحو السنة الخامسة والسبعين . غير انهُ يجب ان يضاف الى ما سبق ان هذه الادوار يختلط بعضها بالبعض الآخر بدون ان يكون هناك خط فاصل واضح بينها وان سرعة النمو وقصر مدة البلوغ وعجلة الشيخوخة والهرم موقوف بعضها على نوع البنية الموروثة و بعضها على نوع المعيشة وعوائد الحياة التي كثيراً ما تؤدي الى العجز الباكر اذا لم تكن سبب الهلاك السريع

اذا وقفنا عند سرير طفل مولود حديثاً وتأملنا فيهِ لا نرى الاَّ الضعف التام والبله لانهُ لا يقدر على شيء ولا يفهم ولا يميّز شيئاً . حواسهُ الظاهرة لا تأتيهِ بصورة عقلية ويقضي اكثر زمانهِ نائماً ولا يبكي الاَّ اذا كان جائعاً او متألماً . ولكنهُ لا يلبث طويلاً حتى يأخذ في تمرين حواسهِ وادراك ما حولهُ بواسطتها وتتربى فيهِ عادة المراقبة والتأمل وهي عادة لا تفارقهُ مدة الحياة . ومن العجب ان هذا الطفل الضعيف يصير رجلاً شديد البأس صبوراً على احتمال الاعمال الشاقة وتدبير الامور الكبيرة واقتحام الاخطار والخوض في بحار العلم وربما صار شهيراً في زمانهِ لهُ اسم عظيم واعمال معتبرة تترك لهُ ذكراً دائماً . وفي ذلك سرٌّ من الاسرار العجيبة التي اودعها الخالق في الطبيعة وهو سرُّ النمو والارتقاء . وتظهر في الطفل اولى الاسنان اللبنية نحو الشهر السابع وتتكامل في السنة الثالثة حيث ينتهي سن الطفولية . وفي اثناء هذا السن يتعلم الطفل المشي و يبدأ في التكلم وتناول الطعام البسيط .

ويعقب هذا السن سن الصبوة وهو يمتد الى بداءة التسنين الثاني اي الى بداءة السنة السابعة على قول بعض والى نهايتها على قول البعض الآخر . وفي خلال هذا السن يكون الولد كثير النشاط والحركة فيطلب الطعام دفعات كثيرة في اليوم لاجل تعويض ما يخسرهُ بسبب الحركة الدائمة ولاجل عمل النمو وينام باكراً وطويلاً لاجل استرجاع القوة العصبية التي يفنيها في اجهاد الجسد والعقل وتشتد فيهِ عادة الملاحظة والتأمل و ينمو فيهِ الدماغ بسرعة عظيمة . وبناء على سرعة النمو الجسدي والعقلي في هذا السن كان عجز الولد عن الرياضة الكافية واجهاد عقلهِ في الدرس سبباً عظيماً في ضرر قواهُ وربما تربت فيهِ عداوة متمكنة للدرس والمدرسة والمدرسين .

وقد تقرَّر على ما اعلم ان الولد الذي يُرسَل الى المدرسة في السنة الخامسة والولد الذي يبدأ درسهُ في السابعة يستويان في العلم والمعرفة في السنة العاشرة ولذلك لا يكون من الصواب اشغال الولد في الدرس قبل السنة السابعة. ولما كان الاولاد في هذا السن منعكفين على المراقبة والتفكر وجب الانتباه الكلي الى ابعادهم عن كل ما من شأنهِ ان يضر باخلاقهم وآدابهم

ويدوم السنين الثاني من السنة السابعة الى السنة الرابعة عشرة وهو زمن الفترة الذي يصرفهُ الصبيان في تعلُّم صناعة لاجل المعيشة او في المدارس حيث ينال الصبي او البنت شيئًا من مبادئ العلم التي تكون—او يجب ان تكون اساسًا يبنى عليهِ تعليم الانسان لنفسهِ مدَّة حياتهِ او تعلمهُ في المدارس العالية ولذلك كان لهذا السن اعتبار عظيم في خير الانسان . ولا يسعنا هنا الكلام الطويل في هذا الباب العظيم الشأن فنقتصر على التنبيه الى ثلاثة امور كبيرة

الاول ان العلم في المدارس لا ينحصر في اكتساب الطالب معرفة يستعملها ويستفيد منها كمعرفة القراءة والكتابة ومبادئ النحو والحساب والجغرافيا والتاريخ وما يشبهها ولكنهُ يهذب العقل ويقويهِ ويربي فيهِ مزايا التأمل وحصر القوة العاقلة في المباحث التي يلتفت اليها ويؤهلهُ الى حسن التصرف في تدبير امور الحياة ولا سيما اذا كانت مهنتهُ من المهن التي تقتضي على الخصوص ثبات الفكر والحذق وصحة الحكم

ثانيًا المدارس في البلاد الشرقية حديثة لا تزال قاصرة عن الايفاء بهذا الغرض العظيم وذلك سواء نظرنا الى رتبة المعلمين او كتب التعليم او كيفية التدريس . وهذا امر لا يطمع في نوالهِ الا مع مرور الزمان وارتقاء الامم الشرقية واتباعهم لما توصلت اليهِ الشعوب المتمدنة بعد خبرة طويلة في امر المدارس والتدريس . ولذلك فمن حكمة الآباء ان يختاروا لاولادهم افضل المدارس الموجودة وان لا يبالوا بزيادة ما يترتب عليهم من الاجرة والنفقة اذا كان ذلك في طاقتهم لان هذا خير ما ينفق على الولد . ومن مصلحة الشبان بعد تحصيلهم ما امكن في احسن المدارس ان يعكفوا على المطالعة بعد خروجهم منها ويربوا في انفسهم عادة الدرس المستمر وان يعرفوا ان القسم اليسير الذي نالوهُ من العلم انما هو يسير جدًّا لا يزيد الا بالجد الطويل

ثالثًا يجب ان يضاف الى التربية العقلية في المدارس تربية القوة الجسدية بواسطة الملاعب العنيفة والرياضة النشيطة في الهواء المطلق . وذلك لان الجسد في هذا السن الى ما بعد السنة العشرين لا يزال ينمو نموًّا سريعًا ولا يعينهُ شيء كما تعينهُ الرياضة اليومية الكافية ولا اظن انهُ يكفي الشاب اقل من ثلاث ساعات كل يوم تُنفَق كلها فيها . واذا شئنا ان نعرف الفائدة الناشئة من ذلك فلننظر الى اهل البرّ الذين اكثر معيشتهم في الحقول والبراري واهل المدن الذين

يصرفون زمانهم في البيوت والحوانيت ومن هذه المقابلة نرى الفرق العظيم بين الفتيين في القوة وصحة الوجوه والابدان . او اذا شئتم مقابلة أُخرى فانظروا الى نشاط شبان الافرنج واقدامهم على الاسفار الطويلة والامور الكبيرة وعدم مبالاتهم بمشاق الحروب والى محبة الراحة والكسل والتواني وخوف الاخطار التي نراها عامة على شبان المدن في هذه البلاد. وانا لا اعرف سبباً طبيعيا لهذا الفرق الاّ ان الفريق الاول جعل تمرين الجسد وتمرين العقل في مرتبة واحدة رفيعة اذ لا صفاء لعيش الانسان بدونهما متبعاً قول الفيلسوف الروماني "ان افضل ما يبتغيهِ الانسان صحة العقل مع صحة الجسد" واما الفريق الثاني فلم يجرِ هذا المجرى

ونحو السنة الخامسة عشرة يظهر تغير عجيب في بنية الفتى وهو دور الانتقال الى قوة الشباب وجماله وحينئذٍ تبدو عليهِ علامات الشجاعة والاقدام والتعويل على النفس والميل الى مباشرة الاعمال التي تزيد فيهِ كلما تقدم في العمر الى ان تبلغ اشدها متى صار رجلاً كاملاً. واما البنت فيظهر فيها الشعور بالحياء والحشمة والاعتزال وغيرها من الصفات الانثوية الخاصة بجنسها . ويخشن صوت الذكر وينخفض سلّماً او اكثر من السلالم الموسيقية واما الانثى فتدوم ليونة صوتها مع ارتفاع نغمتهِ . ويظهر في الذكر والانثى الميل الى الجنس المخالف الذي يشتد في الشاب الى ان يصير مع الزمان خلقاً غالباً على ما يبدل بعد ذلك بمحبة الارتقاء والمال

الشباب زمان الزرع من الحياة لانهُ في هذه المدة اي بين السنة الخامسة عشرة والسنة الخامسة والعشرين يختار الشاب مهنة او حرفة يتعلمها وهو ينقاد في ذلك اما لما فيهِ من الميل الطبيعي الى تلك المهنة او لاسباب خاصة لا تمكنهُ من الاختيار . وهي المدة التي تتكون فيها الصفات والعوائد الجيدة او الرديئة ويندر ان يتخلص الشاب بالكلية من عمل التجارب الكثيرة التي تحيط بهِ حينئذٍ. فمتى شاهد في اهلهِ وعشرائهِ مثالاً صالحاً وجعل اهل الفضل الذين عرف سيرتهم او رآهم قاعدة لحياتهِ تحثّهُ على الكد والاستقامة والطهارة ورفع عواطفهُ وآمالهُ الى مقام رفيع مفيد بين الناس وجدَّ في المسير بكل ما لهُ من القوى والوسائط نال غالباً بعض ما يرجوهُ . وبالعكس اذا لم يضع غرضاً رفيعاً تجاه عينيهِ لا ينساهُ نهاراً ولا ليلاً ولكنهُ جعل الكسل والبطالة واللهو دأْبهُ وسلم نفسهُ للرذائل والعوائد الذميمة كان مصيرهُ الى الذل والمسكنة وربما آل بهِ الامر الى الخراب العظيم . فليسمع الشبان قول شيخ خبير بامور الحياة كتب منذ ثلاثة آلاف سنة وكل جيل بعدهُ يصدّق لما كتب — "يا ابني ان تملقك الخطاة فلا ترضَ لا تسلك في الطريق معهم امنع رجلك عن مسالكهم . تمسّك بالادب لا ترخهِ احفظهُ فانهُ هو حياتك . كنوز الشر لا تنفع . العامل بيد رخوة يفتقر اما يد المجتهدين فتغني . لا يمل قلبك الى طرق المرأة الاجنبية ولا تشرد في

مسالكها طرق الهاوية بيتها هابطة الى خدور الموت . راس الحكمة مخافة الله من يجدها يجد الحياة وينال رضى من الرب ومن يخطئ عنها يضرّ نفسهُ كل مبغضيها يحبون الموت"

وهناك امور أُخرى كثيرة يجب على الشاب ان يلتفت اليها ويطلبها كالحزم اي التبصر في عواقب الامور وتدبير السيرة بمقتضى ذلك والصدق في الكلام والاستقامة والعدل والامانة في معاملة الناس والاحسان الى المحتاجين وعمل المعروف وعادة التلطف والانس والشهامة وعزة النفس . وفوق كل ذلك احترام الدين والقيام بشعائره مع الاعتقاد الثابت انهُ لا يأمر الَّا بالخير ولا يحرّم الَّا الشر وانهُ من اعظم العوامل في ردع الانسان عن القبيح وتحريضهِ على الصلاح وانهُ يرشدهُ في سبيل السلامة في هذه الحياة الى آخرة صالحة بعد الموت

ثم اذا تقدمنا خطوةً أُخرى في ادوار الحياة رأينا ان الانسان يبلغ أشد نمو الجسد والقوة نحو السنة الثلاثين على ان الدماغ يدوم في زيادة العقل الى ما بعد الاربعين وترافق هذه الزيادة المعرفة والخبرة والقوة العاقلة . وقال البعض ان السن الاوفق للزيجة هو نحو السنة الثامنة والعشرين للرجل ونحو العشرين للمرأة . وقالوا ان الصفاء فيها لا يكون غالبًا الَّا اذا وجد بين الزوج والزوجة التساوي في المقام والمال والذوق والخلق ومذهب الدين والآداب . وهي حالة يندفع اليها كل الناس وكثيرًا ما تكون كلعب الميسر يستخرج الانسان ورقة بيضاء بدلاً من الثروة العظيمة التي طمع بها . ولما كانت الزيجة وثاقًا شرعيًا لا يحل عند النصارى كان من الواجب الضروري الحذر والتبصر قبل الدخول في هذا الوثاق الدائم . ثم اذا لم يكن اتفاق بين الزوج والزوجة كان السبيل الاصوب المسالمة والاحتمال والصمت دفعًا للنزاع الدائم الذي لا يورث الَّا الكدر والعار . قال سليمان الحكيم "من يكدّر بيتهُ يرث الريح"

ويحسن في هذا المقام ان نذكر شيئًا من الاختلاف بين الرجل والمرأة في البنية العقلية والادبية . المقرّر عند عامة العلماء ان القوى العاقلة في النساء اضعف غالبًا مما هي في الرجال على ان قوة الادراك والتمييز البديهية احد واسرع فيهنّ . والمرأة من الشعور بحاسات الغير وما يخالج افكارهم ما ليس للرجل غير انها قاصرة في ثبات الاجهاد العقلي المتصل وهي لا تدرك مسألة عند البحث ادراكًا يحيط بكل وجوهها كما يدركها الرجل . وهي ضعيفة الارادة بالنسبة الى الرجل ولكنها اشد منهُ احساسًا ولذلك تراها شديدة الانفعال النفساني الذي كثيرًا ما يسوقها الى العزم والعمل النشيط فتعدل عنهُ متى سكن فيها هيجان النفس خلافًا لما يشاهد في اعمال الرجل الذي يساق الى اعمالهِ بواسطة قوتهِ العاقلة فيجدُّ فيها جدًّا ثابتًا لا ينثني عنها . وبناء على ذلك قالوا ان المرأة ادنى من الرجل في مقام العقل وارفع منهُ في شدة الاحساس وطهارة النيَّة واقدر على احتمال الألم

والمصائب فهي في غاية الموافقة لتكميل نقصهِ وترقية قواهُ التي كانت لولاها تجنح الى الخساسة ومصلحة الذات . وهذا القول صحيح على الاغلبية لا على الاطلاق لان لبعض النساء عقولاً يندر وجود مثلها بين الرجال ولبعضهنَّ كتب يعجز كثير من المصنفين ان يأتوا بمثلها. ويكفينا ان نذكر في هذا المقام اسم مادام دوستايل الفرنسوية وجورج اليوت الانكليزية ومدمس ستو الاميركانية

وافخر العمر ما بين السنة الثلاثين والسنة الخامسة والاربعين وهو المدَّة التي ينال فيها الانسان اشدَّهُ من القوة الجسدية والعقلية ويأتي باعظم الاعمال التي تميّز بها حياتهُ . على اننا نشاهد في ما مضى من التاريخ وفي الزمن الحاضر رجالاً قدرتهم في الشيخوخة لا تعجز عن القيام باعظم المهمات البشرية كبزمارك الالماني الذي بلغ الآن السنة السبعين وكلادستن الانكليزي الذي بلغ السادسة والسبعين والاستاذ فليشر الذي بلغ الثمانين ولا يزال يعلم اللغة العربية في مدرسة ليبسك الشهيرة . غير ان هولاء الرجال جبابرة خارجون عن القياس العام الذي يجعل السنة الخامسة والاربعين او الخمسين حد ما يبلغهُ الانسان من القوة ثم يبتدئ منها زمن الانحطاط والتقهقر الى الشيخوخة والهرَم

وقد يهجم دور الانحطاط بغتةً وقد يأتي ببطوءٍ لا يشعر بهِ . وهذا الخلاف موقوف بعضهُ على صحة البنية واكثرهُ على عادات الحياة السابقة . فان كان الانسان متعوّدًا الرياضة الكافية للجسد والعقل بدون اجهاد مفرط وكان نومهُ كافيًا للراحة مدة الليل وكان طعامهُ مغذيًا بدون شره ومرتبًا في اوقات معينة وتجنّب الاسباب المضرة بالصحة دام فيهِ النشاط الحيوي زمانًا طويلاً بدون نقص كبير . غير انهُ مهما عل فليس في طاقتهِ ان يمنع ما لا بد منهُ فيبدأُ المشيب عند ذلك او قبلهُ وينذر بهبوط القوى وزوال نضارة الشباب. ونحو ذلك الوقت تضعف المخيلة والعواطف دون القوى العاقلة التي تشتد مع زيادة الخبرة فان الخبرة استاذ البشر وهي لا تأتي الاَّ مع تقدم السن الذي لا يبلغهُ الانسان الاَّ وقد حبطت مساعيهِ في الغالب وخابت آمالهُ فيقف متحسرًا على ما فات مصدقًا لقول الشاعر الروماني القائل "بلغت سفينتي المرفأ وهنا اودع الامل الذي طالما هزأ بي فليهزأ الآن بغيري". قال بيكنسفيلد في بعض كتبهِ "انما زمان الشبان زمان الخطإِ وزمان الكهولة زمان الجهاد وزمان الشيخوخة زمان الاسف"

ينتهي دور الهبوط الى هرم الشيخوخة حيث يتغلب دثور انسجة الجسد على التعويض عنهُ بواسطة التغذية فيندر ان يستطيع الانسان عملاً كثيرًا بعد الستين حيث يضعف البصر وينقص السمع وتقصر القامة وينكمش الوجه وتقل الذاكرة ولا سيا في الامور القريبة العهد ويضعف الفهم والقوة الذاكرة ويأبى الشيخ الحركة ويطلب السكون والراحة . وقد سبق ما لكل ذلك

من الشذوذ الذي لا يبنى عليهِ قياس

وبينا تكون هذه التغيرات جارية مدة ادوار الحياة يظهر معها عادة ثلاثة اهواء تتنازع النفس ويغلب احدها الآخرين بحسب الدور الذي يكون الانسان فيهِ . وهي العشق والمناظرة ومحبة المال فالاول يتغلب مدة الشباب والثاني مدة الكهولة اي بين السنة الثلاثين والخامسة والاربعين والثالث بعد السن المذكور الى نهاية الحياة . اما العشق فيندر ان يتخلص الانسان من سطوتهِ القاهرة او من عذابهِ الاليم الاَّ اذا كان معتدلاً حلالاً . ومن شأنهِ ان يرفع صفات الانسان ويحرك فيهِ عزة النفس واللطف ولكنهُ كثيرًا ما يحطهُ ويسوقهُ الى الاثم والعار والويل فللشاب ان يتبصر بكل ذلك ويتدبر في امرهِ

واما المناظرة وهي حب الرفعة فيراد بها هوًى في النفس يتغلب في اواسط الحياة ويسوق الانسان الى طلب التقدم على غيرهِ في المقام والغنى والاعتبار والصولة على القوم الذين يكون هو بينهم . ولما كان ناشئًا عن العجب بالنفس رافقهُ دائمًا الغرور والتهوُّر والتصلف وكثيرًا ما يقود صاحبهُ الى الاجحاف بحقوق الغير فينتهي الامر الى الخصام والكدر والسقوط والهوان . ومن شواهد التاريخ على ذلك موت اسكندر الكبير شابًا وهو راجع من فتوحاتهِ في اسيا وموت نابوليون الاول اسيرًا ونابوليون الثالث غريبًا مستجيرًا في بلاد الانكليز

واما حب المال فيستظهر غالبًا في دور الانحطاط من الحياة بحجة التجهيز لعجز الشيخوخة او لحاجة العيال . وهو من الاهواء التي تشغل القلب وكثيرًا ما ينتهي الى البخل الذميم ومحبة النفس وعدم الشعور برزايا الغير وسد الاذن عن صراخ البائس والمسكين . فيموت البخيل عابدًا للمال الى النسمة الاخيرة من الحياة . ومن امثال العرب المنسوبة الى لقمان قولهم يشيب المرء وتشب معهُ خلتان الحرص وطول الامل

وجميع هذه الاهواء غريزية في الانسان موضوعة فيهِ للخير لا للشر . فليس شيء من الحرام في المحبة الجنسية اذا كانت طاهرة مضبوطة او في حب التقدم اذا كانت وسائطهُ جائزة لا تجحف بحقوق الغير او في جمع المال والاقتصاد بالحلال . ولكنها اذا تجاوزت هذه الحدود وافضت الى اعمال الحرام والخساسة او اذا اشغلت كل عواطف الانسان وطردت منهُ ما يحق لله وللقريب وللنفس صارت شياطين تسكن القلب وتخدعهُ وتعذبهُ وتؤدي بصاحبها الى الهلاك ولذلك يجب الحذر العظيم منها لانها جرحت اقوياء كثيرين وقتلتهم . وافضل الوسائط لضبطها او مقاومتها التربية الصالحة والتبصر بالعواقب وعلى الخصوص مخافة الله ومراقبة القلب ودفع العدو قبل دخولهِ حصون النفس واستظهارهِ عليها بحيث يعسر اخراجهُ بعد ذلك

ويعقب هذه التغيرات في طبيعة الانسان الجسدية والعقلية والادبية تغير اعظم منها جميعها واشدّ منها اعتبارًا — هو الموت اي انقطاع الحياة وتوقف كل ما للجسد من الاعمال الحيوية . ويظهر من سجلات الموتى ان نحو خمس الجنس البشري يموت قبل السنة الاولى والثلث قبل السنة الخامسة ونحو النصف قبل السنة الخامسة والعشرين ثم يقل الموت بين هذا السن والستين ثم يشتد جدًا بعد ذلك ويندر من يتجاوز السبعين . ويظهر ايضًا ان عدد المولودين يزيد على عدد الموتى بين الامم المتمدنة خلافًا لاكثر الشعوب المتوحشة . ومن الشواهد الصريحة على ذلك ان الامة الانكليزية لم تبلغ العشرين مليونًا في اوائل هذا القرن والآن صارت خمسة وثلاثين مليونًا ما عدا العدد العظيم الذي خرج منها ليحلّ في مستعمراتها الكثيرة مثل اميركا وكندا واستراليا وزيلاندا الجديدة وغيرها وهو لا يبعد عن خمسين مليونًا . وهكذا سكان اوربا فان زيادة عددهم قد الجأتهم الى استعمار البلاد البعيدة على ما نرى في التاريخ الحديث ووقائع هذه الايام . وبالعكس هنود اميركا وسكان جزائر صندويج وفيجي وغيرهم المسرعون نحو الانقراض الكامل . واما الامم المتوسطة بين التمدن والتوحش فيظهر ان عددها ثابت بدون شيء عظيم من الزيادة والنقص . ويستدل من كل ذلك ان حالة التمدن والعيش في الامن والراحة والعدل من الامور التي لها فعل ظاهر في معدل عمر الانسان العام وزيادة عدد الامة . ويقال على الجملة ان من اراد ان يعيش حياةً طويلة شيخوختها خالية بعض الخلو من اثقالها الكثيرة فليراع شروط الصحة العامة وليتجنب العوائد القبيحة المضعفة ولا يسرف في قوته كما لا يسرف في ماله . وليس في هذا القول ما يخالف الاعتقاد بالعناية الربانية والتدبير الالهي لان الله تعالى قد علق الاشياء باسبابها كما انه ليس في طاقة الانسان ان يمنع الموت المقدور لكل ابن انثى وان طالت سلامته

واكبر المسائل التي تتعلق بالموت بلا ريب مسألة خلود النفس وانتقالها الى حالة جديدة بعد انفصالها عن الجسد . وهو اعتقاد مبنيٌّ خصوصًا على كلام الوحي المنزل ثم على ادلة عقلية كثيرة راهنة عند جمهور الفلاسفة من الزمن القديم الى الآن . وهو غريزي في الانسان مغروس في اعماق قلبه بحيث اذا اقتلع منه جبرًا اقتلع معه كل ما يجعل للنفس العاقلة مقامًا رفيعًا في الخليقة وللحياة شأنًا يليق بها وبالخالق العظيم الذي رقاها الى هذا المقام وحاشاهُ ان يرجعها الى الفناء الدائم . فمن ينكر خلود النفس لم يبقَ له اله يعبدهُ ولا نور يهتدي به ولا رجاء عزيز يرجوهُ ولا تعزية يتعزى بها ولا غرض يطلبهُ الاَّ اباطيل باطلة كقبض الريح . ولا نعرف كيف يسد اذنيه عن صوت البشر العام وكيف يدفع جميع حجج الاجيال العديدة التي اجمعت على انهُ متى رجع التراب الى الارض كما كان رجعت الروح الى الله الذي اعطاها